رتبة التقديم في القرآن الكريم

م.عبد الجواد عبد الحسن علي

جامعة أهل البيت

تمهيد

مفهوم التقديم ظاهرة لغوية علقت الدرس القرآني في التراث النقدي و البلاغي عند العرب بمتلقيه ، مراعاة لمقتضى الحال ، ألفه الذوق العربي فطرة و سليقة ، وهو جعل الشيء سابقا على غيره لضرورة تسعى إلى إنتاج الدلالة باسناد لغوي و أسناد عقلي ، عبر سلسلة تحولات ، من المعنى الظاهري إلى المعنى العميق [١] ، و تهدف إلى رسوخ المعنى في الفكر و النفس ، وهذا كله على وجه الأولوية وبيان المناسبة لا على وجه اللزوم ؛ فقد سبق النحويون البلاغيين ووضعوا له أحكاما عامه ، منها ما يقاس عليه ، ومنها ما لا تحكمه قواعد قياسية ، قال سيبويه : (كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم و هم ببيانه أعنى) [٢] وعليه فقد تعددت تبعا لذلك آراء النحاة و البلاغيين في تناول هذا الأسلوب في عبارة القرآن الكريم بحسب نوع الدرس اللغوي ، و العصر الذي دُرِس به مفهوم التقديم .

فالنحاة المتقدمون اقتصرت آراؤهم على تعميم قواعد أسلوب التقديم ، ويعدونه قرينة على الوظيفة النحوية للكلمة في السياق ، وقيدوا أحكامهم بين الوجوب و الجواز ، نحو قوله تعالى : **" إيَّاكَ نَعْبُدُ "** [٣] ، فالضمير (إياك) مفعول به واجب التقديم لأنه ضمير نصب منفصل ، و حكمه أن يتقدم على فعله وجوبا ، و نحو قوله تعالى : **" فَرِيْقَاً تَقْتُلُونَ "** [٤] فالاسم (فريقا) مفعول به تقدم على فعله جوازا ، وقاسوا قواعدهم على وفق تلك الأحكام .

أما النحاة المتأخرون فقد تركزت آراؤهم على علل النحو ، بعد أن استكمل النحو أحكامه و استغلقت أبوابه فدخل النحاة المتأخرون إلى ميدان فسيح من الاجتهاد و تصارع الآراء ، لحاجتهم إلى تعميم أحكامهم و أصول مناهجهم و مذاهبهم في التعليل ، مما صدر عن ذلك توسعهم و تفلسفهم في تعليل الأحكام النحوية [٥] ، حتى غدت المفاضلة بين النحويين المتأخرين تقوم على مقدار ما يحسن أحدهم من صنعة التعليل [٦] ، مما دفع بعض النحويين إلى إحالة أحكام النحو إلى التعليل ، قال أبو البركات الأنبا ري : (**إعلم أن**

---

[١] ـ مباحث في لغة القرآن الكريم و بلاغته ، د. عائد كريم علوان ، ص ٥١ .

[٢] ـ الكتاب ، سيبويه ، ج١ ، ص ٥١ ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط٣ ، مكتبة الغانجي ، ١٩٨٨ القاهرة .

[٣] ـ سورة الفاتحة : ٤

[٤] ـ المائدة : ٧٠ .

[٥] ـ ينظر : ابن جني النحوي ، د. فاضل السامرائي ، ص ٨٢ ، دار النذير ، بغداد ، ١٩٦٩ ،

[٦] ـ الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث الهجري ، د . محمد حسين آل ياسين ، ص٣٧٢ ، مكتبة الحياة بيروت ، ١٩٨٠ ، ط١

.

العلماء اختلفوا في ذلك ـــ يعني الحكم النحوي ـــ فذهب الأكثرون إلى أنه يثبت بالعلة لا بالنص) [٧] ، ومن تلك العلل التي توسّعوا في دائرتها هي علة التقديم في أسلوب البناء اللغوي للآيات الكريمة ،و بسطوها بين ساحة النحويين و اللغويين ، دون أن يذهبوا إلى تعميم قواعدهم بأقيسة ثابته ، و تركوا الباب مفتوحا خلفهم ، للتوسع في مفهوم التقديم ، فقد أثمرت آراؤهم بمفاهيم جديدة لم يتطرق إليا المتقدمون من شيوخهم ، وخرجوا بنتائج كانت فتحا مبينا لدرس لغوي جديد ، منها مثلا : ما ذهبوا إليه في قوله تعالى : **" وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادِ وَثَمُودَ وَقَوْمُ إبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطِ وَأَصْحَابُ مِدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلِيَتْ لِلكَافِرِينَ "** [٨]، فإن ترتيب هذه الأسماء السبعة وتقديم بعضها على بعض في سياق الآية الكريمة إنما وقع بحسب ترتيبها الزماني الذي حصلت فيه ـــ سنأتي على تفصيلها لاحقا ـ .

أما البلاغيون فانغمسوا في أسلوب التقديم وتوسعوا فيه ، على أنه عدول عن الأصل ، و المتلقي يتأثر بهذا العدول أو التحول أكثر مما يتأثر بالأصل ، إذ يحصل به على ناتج دلالي جديد يخرج عن دائرة المألوف إلى آفاق الإبداع ، فعابوا على النحويين تغافلهم عن هذا، فتناولوه في أبواب البلاغة بشيء من التفصيل ، قال الجرجاني : **(ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعُه و يلطفُ لديك موقعُه ثم تنظر فتجد أن سبب أن راقك و لطف عندك أن قدّم فيه شيء و حول اللفظ عن مكان إلى مكان)** [٩] ، فقد أزادوا على مفهوم التقديم لدى النحاة الذين قصروا أفكارهم على وجهين : أولهما ، تقديم على نية التأخير ، مثل تقديم الخبر على المبتدأ كقولنا : منطلقٌ زيدٌ ، فقدمنا الخبر (منطلق) على نية تأخيره لأن محله التأخير ، فلا تغيير طرأ على حكمه ولم يفض إلى معنى جديد ؛ و توسع البلاغيون في التقسيم الثاني الذي أقره النحاة و هو تقديم لا على نية التأخير ، فقد ذهب البلاغيون إلى أن هذا التقديم يصاحبه نقل الكلمة من حكم إلى حكم آخر ، ومن وظيفة نحوية إلى أخرى ، ومن معنى إلى معنى جديد ، فمثلا لو أخذنا المثال ـــ المار ذكره ـــ و أجرينا التقديم عليه ، و قلنا : المنطلق زيد ، فقد عملنا على تغيير وظيفة كلمة (المنطلق) فأصبحت مبتدأ ، و (زيدٌ) خبر ، وتبع ذلك تغير في المعنى الذي ننشده من العبارة ، فالعبارة الأولى كانت جوابا عن سؤال (مَنْ) ، و العبارة الجديدة بعد التقديم كانت جوابا عن الحدث أو الفعل الذي أحدثه زيد ، ولم يخرج البلاغيون عن دائرة الأبواب النحوية ، إلا في علاقة اللفظ المتقدم بمعناه الجديد ـ و سنذكرها لاحقا بشيء من التفصيل ـ .

---

[٧] ـ لمع الأدلة في أصول النحو ، أبو البركات الأنباري ، ص ٦٨ ، تحقيق سعيد الأنباري ، مطبعة الجامعة السورية ، ١٩٨٨ ، .

[٨] ـ الحج : ٤٢ .

[٩] ـ دلائل الاعجاز في علم المعاني ، عبد القاهر الجرجاني ص، ١٤٨ ، المكتبة العصرية ، صيدا ، ٢٠٠٢ .

أما أصحاب المدرسة اللغوية المعاصرة فلم يحيلوا أبحاثهم على الظواهر اللغوية في القرآن الكريم ، بصفته المستوى الأمثل للغة الكلام و الخطاب العربي ، بل اقتصرت أغلب جهودهم على دراسة الظواهر اللغوية في اللغات الميتة ، بمعنى آخر دراسة اللغة من أجلها و لذاتها ، بعيدا عن تأثيرات التطور و النمو[١٠] ثم توزعت هذه الفكرة على مذاهب و اتجاهات فكرية ، وانصرف قليل من تلامذة المدرسة اللغوية الحديثة إلى البحث و الاستقصاء في ظواهر السياق في الخطاب القرآني ، أمثال (تمام حسان) و (رمضان عبد التواب) و (ابراهيم السامرائي) و (صبحي الصالح) و غيرهم ، وهؤلاء قد خرجوا إلينا بأفكار جديدة بخصوص موضوع البحث ، كان بعضها مخالفا ، و بعضها الآخر مؤتلف ، و قد تبين أن تلك الآراء قد أثريت من المنطلقات النظرية لأفكار المدرسة اللغوية الحديثة (المدرسة السياقية) [١١]، فجاءت آراؤهم تتراوح بين تلك المنطلقات النظرية و بين آراء النحاة ، مما أضفى عليها طابع التحديث و التقريب بين المدرسة النحوية العربية و المدرسة اللغوية الحديثة ، فقد تناولت أراؤهم ظاهرة التقديم في خطاب العبارة القرآنية المقدسة ، لكنها تنصب على الجانب الدلالي للعبارة ـــ بعدّه أن أساسيات الدرس اللغوي الحديث اعتمدت علم الأصوات و الدلالة وانغمسوا فيها ، بدأ من تطبيقات العالم الفرنسي (بريل) في علم الدلالة ، مرورا بثنائية (فردينال دي سوسير) الدال و المدلول ، و أراء المدرسة التوليدية و التحويلية لـ (تشومسكي) ، وما أخذ به تلامذتهم من تفرعات تلك الوظائف و تحليلها في دائرة تلك العلوم اللغوية [١٢] .

أما علماء الإعجاز القرآني فيذهبون إلى أن التقديم في مفردات العبارة الواحدة يجري لحكمة يريدها الله ـــ سبحانه و تعالى ـــ في مقام العبارة وهذه مزية الإعجاز منحها الله سبحانه و تعالى لعباده للتأمل و التفكر في كلامه المقدس ، فتارة يكون التقديم دافعا للتفكر في معنى العبارة ، وتارة أخرى تكون مزية للتأمل في جمال اللفظ و حسن التعبير ، مراعاة لخفة اللفظ من استثقاله ، وتطبيقا لجرس الكلمة و مسجوعها [١٣]، ويبدو أن علماء الإعجاز قد انصرفوا إلى مقاربة ألفاظ الشعر من القرآن الكريم ، فتركوا تلك المواضيع للنحاة ، دون أن يتمكنوا من تعميم أحكامهم ، فجاءت كتب الإعجاز القرآني متماثلة في التفسير و التوجيه الإعرابي و اللغوي ؛ قال أبو عبيدة في مجازه ، في قوله تعالى : **" ذلك الكتاب لا ريب فيه "** [١٤] ، بمعنى لا شك فيه ، و أنشدني أبو عمر الهذلي لساعدة بن جؤيّة الهذلي :

---

[١٠] ـ مباحث في علم اللغة و اللسانيات ، د. رشيد عبد الرحمن ، ص٢٠٦ ، ط١ ، بغداد ، ٢٠٠٢ .

[١١] ـ البنى التركيبية ، نعوم تشومسكي ، ص١٣ ، ط٢ ، ترجمة يونيل يوسف ، بغداد ١٩٨٧ .

[١٢] ـ ينظر : الأسلوبية ، د . عبد السلام المسدي ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، ٢٠٠٥ ، ص ٣٥

[١٣] ـ ينظر الفصول المفيدة في الواو المزيدة ، ج١ ، ص ١١٢ .

[١٤] ـ البقرة: ٢ .

فقالوا تركنا الحيّ قد حَصروا به   فلا ريب أن قد كان ثَمّ لَحيم [١٥]

أما الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة فيقول في معانيه بشأن الآية الكريمة السالفة : **(فنصبها ـ يعني ريب ـ بدون تنوين وذلك أن كل اسم منكور نفيته بـ (لا) و جعلتها إلى جنب الاسم فهو مفتوح بغير تنوين)** [١٦] ؛ لذلك أغفلنا في بحثنا توجيهات أصحاب كتب الإعجاز القرآني ، و عولنا بحثنا على مخرجات درس البلاغيين و النحاة و اللغويين المحدثين في أسلوب ظاهرة التقديم لصياغة العبارة المقدسة في القرآن الكريم .

أولا : ضرورات التقديم لدى البلاغيين :

يؤكد البلاغيون على ظاهرة التقديم في القرآن الكريم على أنها واسعة التصرف ، جمة المحاسن و كثيرة الفوائد ، ويحمّلون النحويين أوجه التغافل عنه ، و إهمال البحث في مضامينه قال الجرجاني : **(قد صغُر أمر التقديم و التأخير في نفوسهم و هوّنوا الخطب فيه حتى إنك لَترى أكثرهم يرى تتبعه و النظر فيه ضربا من التكلف)** [١٧] ، ويقلل البلاغيون من شأن التقسيم الذي أخذ به النحاة ، و يزعمون عدم كفاية حكم الجواز و الوجوب في فضيلة المعنى ، و ليس هذا فحسب ، بل يذهبون بآرائهم إلى تخطئة أحكام النحويين لدى تقعيدهم ظاهرة التقديم ، حين قسموه على قسمين : وهما تقديم اللفظ على نية التأخير ، كتقديم الخبر على مبتدئه ، أو تقديم المفعول على فاعله ، و تقديم لا على نيّة التأخير ، و غيرها من أبواب التقديم و التأخير التي أقرها النحويون ، قال الجرجاني : **(و اعلم أن من الخطأ أن يقسم الأمر في تقديم الشيء و تأخيره قسمين فيُجعل مفيدا في بعض الكلام و غير مفيد في بعض و أن يعلل تارة بالعناية و أخرى بأنه توسعة على الشاعر و الكاتب)** [١٨] ، وحجتهم أن جملة النظْم يجب أن تكون دالة و مفيدة . لأن الناظم يراعي فيها ترتيب أبواب النحو لغرض إبانة المعنى ، و تثبيت العبارة في ذهن السامع .

و يتضح مما تقدم أن مآخذ البلاغيين على النحويين أنهم لم يستوفوا ظاهرة التقديم حقها في البحث عن معان جديدة يلتمسها السامع من ألفاظ العبارة ، وكذلك لم يعملوا فكرهم على وضع ضوابط أوسع خشية عدم كفاية أقيستهم في تغطية متطلبات ظاهرة التقديم ، فاكتفوا بأحكامهم بما للشاعر من ضرورة شعرية ، و ما للناثر من حاجة لسجعه ، فخرج البلاغيون علينا بتوسعات كثيرة نالت معاني سامية أغنت الدرس اللغوي و أثرت معانيه ، و تلك هي مزيتهم على من سبقهم في تناول دلالات ظاهرة التقديم ، ومن تلك المعاني :

---

[١٥] ـ مجاز القرآن ،أبي عبيدة معمر بن المثنى ، حققه د محمد فؤاد سركين ، ج١ ، ص٢٩ ، ط١ ، مكتبة الخانجي ، ١٩٨٥ ،القاهرة .

[١٦] ـ معاني القرآن ، الأخفش سعيد بن مسعدة ، ج١ ، ص١٧٤ ، تحقيق د عبد الأمير محمد أمين الورد ، ١٩٨٥ ، القاهرة .

[١٧] ـ دلائل الإعجاز ، الجرجاني ، ص١٤٩ .

[١٨] ـ المصدر السابق ، ص ١٥١

١ . التقديم مع الاستفهام التقريري و الإنكاري

توصل البلاغيون إلى ناتج دلالي ، لدى تقديم أداة الاستفهام منها : تقديمها على المسند إليه و على الفعل المضارع و ما تسفر عنه معان كثيرة و يتضح هذا في قوله تعالى : " **ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ** " [١٩] ، فقد التمس نمرود من سؤاله أن يقصر نبينا إبراهيم ـ عليه السلام ـ و يجعله هو الفاعل لينفذ عقوبته فيه ، أما على مستوى تركيب السؤال و عندما تقدم الاستفهام على الاسم ، أصبح المراد ينصَبّ على الفاعل وليس المقصود بالسؤال الحدث الناتج و الفعل الحاصل ، فكان جواب نبينا إبراهيم ـ عليه السلام ـ شافيا كافيا مصيبا لغة و معنى عندما عرف المطلوب من السؤال فقال : " **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فاسْأَلُوهُمْ إنْ كَانُوا يَنْطُقُونْ** " [٢٠] ففوت الفرصة على نمرود في أن يقر بفعلته ، فضلا عما أفضى جوابه ـ عليه السلام ـ من دلالة الهزء بمعتقدهم ، عندما طلب منهم أن يُنطقوا تلك الأصنام إن توجهوا إليها سائلين ، ولو تنبه نمرود وعمل فكره على تقصير نبينا إبراهيم ـ عليه السلام ـ لكان حريا به أن يصوغ عبارته بأسلوب آخر يعمد فيه بان يُدخل أداة الاستفهام على الفعل وليس على الاسم ، ويكون تقدير صياغة العبارة في غير السياق القرآني المقدس هو : (أ فعلت هذا ؟) ، فيكون الجواب لا مندوحة بالنفي أو الإيجاب ويتعرف نمرود على من فعل بآلهتهم ؛ ومثله قوله تعالى : **ِإذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ** "[٢١] ، فالاستفهام الإنكاري وقع على اسم النبي عيسى ـ عليه السلام ، لأنه هو المقصود بعينه في العبارة القرآنية المقدسة ، لذلك كان جوابه بأن أنكر ذلك عن ذاته و نفاه عن نفسه ، لكنه لم يعمل على أن ينفي فعل العبودية الحاصل أو أن ينكر حدثها (اتخاذ الناس له و لأمه إلهين) لأنه واقع حقيقة ، لأن بعض الناس كانوا حقيقة يتخذونه و أمه إلهين من دون الله ، و مثله قوله تعالى : " **أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونْ** " [٢٢]فقد قدم رتبة المفعول لأجله ثم المفعول به الموصوف بشبه الجملة ثم الفعل و الفاعل ، فقد ترتبت الكلمات في عبارة الاستفهام الإنكاري بحسب الأولوية في استحقاق الإنكار ، وأولى الألفاظ بالإنكار هو الكفر لأنه انحراف متعمد عن الحق، ثم يلي ذلك إشراك مع الله ـ سبحانه و تعالى ـ ، ولو كان ترتيب العبارة في غير القرآن الكريم (أ تريدون آلهة دون الله إفكا) ، لانطفأ كل ما في الكلام من حرارة الإنكار ؛ ومنه قوله تعالى **: " أ صْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ** " [٢٣]، و المقصود بالقول المقدس إنكار حدث التفضيل و فعل الاصطفاء ، و مثله قوله تعالى : " **أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ**

---

[١٩] ـ الأنبياء : ٦٢ .

[٢٠] ـ الأنبياء : ٦٣ .

[٢١] ـ المائدة : ١١٦ .

[٢٢] ـ الصافات : ٨٦ .

[٢٣] ـ الصافات : ١٥٤ .

الصُمَّ أوْ تَهْدِي العُمَى "[٢٤] فليس إسماع الصمّ مما يدعيه أحدٌ ، فأفاد الاستفهام الداخل على الاسم إنكار مَن يدعي ذلك ؛ ومن ذلك قوله تعالى : " **أَ غَيرْ◌َ اللهِ أَتَخِذُ وَلِيّاً** " [٢٥] ، فكان لتقديم الاستفهام على الاسم (غير) له دلالة إنكار البديل واستحالة اتخاذ غير الله ـ جلّ و علا ـ ه وليا ، وله نظائر كثيرة وردت في الشعر العربي ، منها قول الشاعر ابن أبي عيينة : [٢٦]

فَدَع الوعيدَ فما و عيدُك ضائري   أ طنينُ أجنحةِ الذبابِ يضيرُ

فقد أنكر الشاعر على المخاطب أصل وعيده ، بأن أدخل أداة الاستفهام على المصدر و هو الاسم وليس الفعل ، لذلك شبه الوعيد بطنين الذباب ، و شبه ذلك نظائر كثيرة جلبت اهتمام البلاغيين بعد أن أغفلها النحاة المتقدمون.

٢. التقديم مع النفي

و مفاده كما سبق ذكره من تقديم أداة النفي و تأخيرها ، و تفصيل ذلك إذا قلت ◌َ : ما أكلتُ هذا ، كنت قد نفيتَ عنك فعل الأكل الذي لم يثبت أنه حدث فعلا و حقيقة ، و إذا قلت : ما أنا أكلتُ ، فقد عملتَ على نفي حدث الأكل مع أن الأكل قد حصل حقيقة ، ولكن ليس منك بل من فرد آخر ، فهذا استفهام إنكاري على الفعل و الحدث ، قال تعالى على لسان الكافرين : " **مَا نَزّلَ اللهُ مِنْ شَيّءٍ** "[٢٧] فقد وقع النفي على فعل التنزيل و حدثه ، و ليس على المنَزّل ــ جلّ و علا ــ ، وهنا لا بد من التنبيه على أن القول لو كان صادرا من المشركين لكان نفيهم وقع على المُنَزّل وهو الله ــ جلّ و علا ــ ، لأنهم جعلوا للخالق الواحد ــ جلّ و علا ــ أندادا ، أما الكافرون فإنهم يقرون بوجود الخالق الواحد ، ولكن لا يوقنون بفعله ، و مثله قوله تعالى على لسان نبينه عيسى ــ عليه السلام ــ : " **قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ** " [٢٨]فقد وقع النفي على نفس النبي و ليس على فعل القول ، لأن المقصود كان ذات النبي نفسه ، و ليس ما زعم من قوله ، فقدم الاسم الضمير ياء المتكلم (لي) بعد النفي ، ليتحقق إنكار التهمة عن ذاته و لو أراد النبي عيسى ــ عليه السلام ــ إنكار الفعل لعمد إلى تقديمه وجعل رتبته بعد أداة النفي ، ونظير ذلك قوله تعالى : " **لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ** "[٢٩] فقد وقع النفي على جنس الخوف في

---

[٢٤] ـ الزخرف : ٤٠ .

[٢٥] ـ الأنعام : ١٤ .

[٢٦] ـ عبد الله بن محمد ، عباسي ، ورد في شواهد الكامل للمبرد ، ج٢ ، ص ٣٤ ، منقول عن دلائل الإعجاز ،ص١٥٧ .

[٢٧] ـ الملك : ٩ .

[٢٨] ـ المائدة : ١١٦ .

[٢٩] ـ الأعراف : ٤٩ .

العبارة المقدسة الأولى ، وكذلك قدّم نفي الخوف ، لأنه يحدث بفعل طارئ خارج عن إرادة البشر ، و أخر الحزن في صياغة العبارة القرآنية المقدسة ، لأن الحزن يحدث من داخل أنفس البشر ، وما يهمنا في هذا الموضع تقدم الضمير (أنت) بعد النفي ليقع عليه ، و ينفي الحزن عن أنفسهم أما فعل الحزن فهو حقيقة واقعة تلاحق البشر ؛ ولهم مواضع أخرى للتقديم وردت في الشعر العربي و كلام العرب ، وما نريده هو التقديم في القرآن الكريم .

ثانيا : ضرورات التقديم عند النحاة المتأخرين

خرج النحاة المتأخرون علينا بتخريجات سياقية بحتة اقتضتها لغة المتكلم و مقام العبارة و عّدوها من المسلمات في صياغة العبارة ، ويبدو لنا ذلك من فنون الجمع بين ضرورات النحويين و بين ضرورات البلاغيين ؛ فقد علل سيبويه ذلك التقديم بأنهم يقدمون في كلامهم ما هم به أهم وببيانه أعنى [٣٠]، وبمعنى آخر ما نعنيه بقتضى حال العبارة ، ولحكمة تطلب التقديم و الاهتمام ليترتب عليها مناسبة المواضع لذلك المقام من حيث المعنى ، أما من حيث اللفظ فقد يراعى سبب ذلك ، فيقدم بعض الألفاظ على بعض بحسب الخفة والثقل كقولهم : ربيعة ومضر وكان تقديم مضر أولى لشرفها بالنبي ولاتساع قبائلها وكثرة فضائلها ولكن قدمت ربيعة لكثرة الحركات وتواليها في لفظ مضر ، فإذا أخرت وقفت عليها بالسكون ، فتقل حركاتها ولكن اعتبار هذا قليل جدا والأكثر الغالب إنما هو اعتبار المعنى وذلك بأحد خمسة أشياء وهي :

١ : الرتبة

وهي قرينة نحوية على المعنى ، و وسيلة أسلوبية لإبداع و تقليب كلمات العبارة بقصد استجلاب معنى يريده المتكلم و المتلقي ؛ و الرتبة في النحو نوعان : محفوظة و غير محفوظة ، فالمحفوظة هي وظيفة الكلمة الثابته في العبارة ضمن مستوى اللغة ، و مستوى الكلام ؛ بمعنى آخر إن موقع الكلمة من الكلمة المجاورة لها يدل على و ظيفتها النحوية ، فالفرق في قولنا : قام زيد ، و زيد قام ، هو فرق بين رتبة الاسم المرفوع من الفعل ، وقد ترتب على اختلاف هذا الموقع أن جُعل (زيد) في العبارة الأولى فاعلا ، و في الثانية مبتدأ ، وعلى الرغم من تغيير رتبة الاسم (زيد) في سياق العبارتين إلا أنه بقي مرفوعا في الرتبتين ، وبقيت رتبته قرينة على معناه في دلالة العبارة الأولى فكانت جوابا لسؤال ، ماذا فعل زيد ؟ ، أما الثانية فكانت جوابا لسؤال ، مَن فعل ؟ .

---

[٣٠] ـ الكتاب ، سيبويه ، ح ٣ ، ص ٧٨ .

ومن الرتب المحفوظة رتبة بعض الأدوات التي لها الصدارة في العبارة ، و رتبة حروف الجر و المعية و الاستثناء و العطف ، و إنما حُفظت رتبتها لأنها تكشف عن علاقة ما بعدها بالكلمات الأخرى في العبارة ، فقولنا : توكلنا على الله ، و على الله توكلنا ، نلاحظ أن حرف الجر (على) ظل سابقا لفظ الجلالة سواء تقدم مجموعهما (الجار و المجرور) أم تأخر، وكذلك تأخر رتبة الحال عن صاحبه ، سواء أكان الحال مفردا أم جملة ، ولكن النحاة لم يجدوا مسوغا لتقدم الحال الجملة [٣١] في قوله تعالى : **" وَيَصْنَعُ الفُلْكَ وَكُلّمَا مَرّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخَرُوا مِنْهُ "**[٣٢] ، و قوله تعالى : **" وَهْيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَ نَادَى نُوحٌ ابْنَهُ "**[٣٣] ؛ ويذهب أبو حيان الغرناطي إلى أن جملة **(وَهِيَ تَجْرِي بِهِم)** يجوزُ أن تكونَ حالاً من الضمير في بسم الله، أي جَرَيانها بسم الله، وهي تَجْرِي بهم ، ويجوز أنْ تكونَ مستأنفة، و «بهم» حال من الضمير في تَجْرِي؛ أي وَهُمْ فيها قال : **(وهي تجري بهم إخبار من الله تعالى بما جرى للسفينة، وبهم حال أي: ملتبسة بهم، والمعنى: تجري وهم فيها في موج كالجبال،)** [٣٤] ، وفيه خلاف و نظر ، مبسوط في كتب النحو .

أما الرتبة غير المحفوظة فهي رتبة في مستوى اللغة حصرا ، لأنها في الاستعمال معرضة للقواعد النحوية ، نحو رتبة المفعول من الفعل و رتبته من الفاعل ، و رتبة الظرف ، و الجار و المجرور فيما تعلقا به ، و رتبة المبتدأ من الخبر و بالعكس ، فالقاعدة النحوية تقضي بحفظ هذه الرتب خشية اللبس ، أو اتقاء الخروج عن القاعدة النحوية كما في قوله تعالى : **" إيّاكَ نَعْبُدُ وَ إيّاكَ نَسْتَعِينُ "** [٣٥] ، فقد تقدمت رتبة المفعول به (إياك) لأن القاعدة النحوية تقضي بتقديمه إذا كان ضمير نصب منفصل (أي) ، ومثله قوله تعالى : **" لا ينفعُ نَفساً إيمانُها "** [٣٦] إذ يجب تقديم المفعول به (نفسا) على الفاعل (إيمانها) لأن الفاعل لو تقدم لعاد الضمير ا لمتصل فيه على متأخر لفظا و رتبة ، بينما الفاعل في سياق العبارة المقدسة وُضع في موضع لا يمكن له التقديم ، لأن الضمير لا يعود على متقدم أصلا ؛ ومثله قوله تعالى : **" وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع**

---

[٣١] ـ البيان في روائع القرآن ، د . تمام حسان ، ص ٦٩ ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط٢ ، ٢٠٠٠

[٣٢] ـ هود : ٣٨ .

[٣٣] ـ هود : ٤٢ .

[٣٤] البحر المحيط ، أبوحيان الغرناطي ، ج٦ ، ص ١٨٠ ، تحقيق صدقي محمد جميل ، ج٤ ، ط١ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٢ .

[٣٥] ـ الفاتحة : ٥ .

[٣٦] ـ الأنعام : ١٥٨ .

السجود "[٣٧] فالتقديم فيه بالرتبة اقتضى أن يبدأ بالطائفين ، لقربهم من البيت ، ثم بالقائمين والمراد بهم العاكفين ، ولم يعطف السجود بالواو ، لأنهم هم الركع والشيء لا يعطف على نفسه ، ولأن من لم يسجد في الصلاة لا يعتد بركوعه .

٢: الزمان

ومفاده أن يحكم العقل لأحد الأمرين بالتقدم ، ويكون تقديم نظم ألفاظ العبارة بحسب زمان الحصول و الوقوع ، و منه قوله تعالى : " **وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وقَوْمُ إبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لوطٍ وَأصْحَابُ مَدْيَنَ"** [٣٨] ، فقد رتب الأقوام في الآية المقدسة بحسب زمانهم و تاريخ تكذيبهم للرسل ،فزمان قوم نوح ــ عليه السلام ــ أقدم من زمان قوم عاد ، وعاد سبقت ثمود ، وكذلك القول بالنسبة إلى قوم إبراهيم و قوم لوط و أصحاب مدين ؛ و مثل ذلك قوله تعالى : **"إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِئِينَ "** [٣٩] ، فقد ورد ذكر المؤمنين قبل رسالة النبي موسى ــ عليه السلام ــ ، ثم ذكر المؤمنين من اليهود ، ثم المؤمنين من النصارى ، ثم المؤمنين من الصابئين ، فنجد ورود ذكرهم في الآية الكريمة بحسب ترتيب الرسالات السماوية في زمان نزولها ؛ ومثله قوله تعالى : " **وجعل الظلمات والنور "** فإن الظلمة سابقة على النور بالزمان ، ومنه قوله تعالى : " **يا ايها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم و اشكروا الله "** [٤٠] ، إنما قدّم فعل الأكل على الشكر على الرغم من ثواب الشكر و جزائه و فضله عند الله ــ سبحانه و تعالى ــ لأن زمان الأكل يسبق زمان الشكر و من جهة أخرى نجدهما كأنهما علة و معلول ، فلا يحصل الشكر ما لم يحصل الأكل [٤١]، ويبدو لي أن الفعلين هما من باب تقدم المسبب على السبب .

٣. الطبع و العادة

ومفاد التقديم فيه ما يحمل اللفظ من دلالة متسلسلة بطبيعتها ، فهي حتمية التقديم ، نحو قوله تعالى : " **مثنى وثلاث ورباع "** وكذلك سائر ما يتقدم

---

[٣٧] ـ الحج : ٢٦ .
[٣٨] ـ الحج : ٤٤ .
[٣٩] البقرة : ٦١ .
[٤٠] ـ البقرة : ١٧١ .
[٤١] ـ الفصول المفيدة في الواو المزيدة ، ج١ ، ص ١٩.

من الأعداد بعضها على بعض إنما يتقدم بالطبع لأن كل رتبة منه إنما تتركب مما قبلها ، ومنه أيضا تقديم العزيز على الحكيم ، فقد روي أن أعرابيا لا يحفظ القرآن سمع قارئا يقرآ إن الله حكيم عزيز فقال ما هكذا أنزلت فقرأ ذلك عزيز حكيم فقال هذا صحيح عز فلما عز حكم [42] ومثل هذا في القرآن العظيم ، والكلام كثير كقوله تعالى: **" إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين "** لأن التوبة سبب الطهارة ، لذلك وردت في الآية الكريمة أسبق ذكرا ، وكذلك قوله تعالى : **" كل أفاك أثيم "** و مثله " **كل معتد أثيم** " لأن الأول سبب الإثم وكذلك الاعتداء. ومثله قوله تعالى : **" هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ"** [43] ، فقد شاءت قدرته جلّ و علا أن يذكرنا بشؤون خلقه ، و يرتب هيئة خلق الإنسان ، بحسب تكوينها البايلوجي و ترتيبها الطبيعي ، و تدرج مراحل تكوينه علّنا نعقل قدرته ــ جلّ و علا ــ لذلك عطف مراحل التكوين المتدرجة بالحرف (ثم) لما فيه من دلالة الفاصل الزمني ؛ ومثله قوله تعالى : **" اركعوا واسجدوا "** [44] ، فالتقديم فيه بالطبع لأنه انتقال من علو إلى خفض فالركوع بالطبع من حق القائم ، و السجود من حق الجالس ؛ و الركوع أسبق في الصلاة من السجود ، بحسب طبيعة أداء تكلي

٤ . السبب

أو ما يسمى بتقديم العلة على المعلول ، نحو قوله تعالى **: " وَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ الزَّكَوٰةَ "** [45] فقد اشترط الشارع المقدس قيام الصلاة أولا وأدائها ،ثم يستوجب عليه دفع فريضة الزكاة وهناك من يذهب إلى الفصل بين الفريضتين *[46]، فلا يعدهما من باب السببية ، وإنما جاءت رتبة الصلاة متقدمة لفضلها على الزكاة ، و خلافه يذهب أغلب المفسرين إلى أن الصلاة أصل العبادات ، فإن قبلت قبل ما سواها و إن ردت رد ما سواها ، وعلى هذا المعنى يأتي تقدم الصلاة في سياق الذكر الحكيم لأنها سبب قبول الفروض الأخرى ، فضلا عن أن بقية الفروض لا تخرج عن إمكانية المسلم و استطاعته ، فالحج مقيد بشرط الإستطاعة ، و الزكاة بشرط التمكن ، أما

---

[42] ـ المصدر نفسه ، ج١ ، ص ١١٢ .
[43] ـ غافر : ٦٧ .
[44] ـ الحج : ٧٧
[45] ـ البقرة : ٤٣ .
[46] ـ البحر المحيط ، ج٥ ،ص ١٣٨ .

الصلاة فلا مناص من أدائها ؛ ومثله قوله تعالى : " فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ " [٤٧]فالويل: معناه الفضيحة والحسرة، وقال الخليل: الويل: شدة الشر، و الهلكة [٤٨] ، وهذا الوعيد لمن كسب المال الحرام، فلذلك كرر الويل في كل واحد منهما، لئلا يتوهم أن الوعيد هو على المجموع فقط. فكل واحد من هذين متوعد إياه بالهلاك. وعلة الكسب الحرام هو ما تقاضوه من أجر على تحريفهم الكتاب ، وهو الأليق بسياق الآية. لذلك قدم العلة على معلولها[٤٩]. ومثله قوله تعالى : " فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئًا وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا " [٥٠]، إنما قصدن المكر بامرأة العزيز ليغضبنها حتى تعرض عليهن يوسف ليبين عذرها، و قيل مكرهن هو اغتيابهن إياها، وسوء مقالتهن فيها أنها عشقت يوسف، وقيل: كانت استكتمتهن سرها فأفشينه عليها، أرسلت إليهن ليحضرن. والظاهر عود الضمير على تلك النسوة القائلات ما قلن عنها ؛ فالأفعال (أرسلت ـــ اعتدت ـــ ءاتت) مرتبة على الطبع و العادة ، لكنها مجتمعة تكون رتبتها سببية للفعل (سمعت)، ولولا سمعها ما قالته النسوة عنها ، لما أرسلت عليهن ، و لا أعدت لهن متكأ ، ولا آتت كل واحدة منهن سكينا ، قال تعالى في تكملة الآية نفسها "فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ " [٥١]فالرؤيا هنا بصرية ، فهي علة و سبب تقطيع أيديهن ، لذلك كانت رتبة الفعل (رأينه) متقدمة في العبارة المقدسة ، ومثله أيضا عُدّ بالسبب في تقديمه على المسبب ؛ قوله تعالى : " اذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا" [٥٢] ، فالفعل (ألقوه) هو علة استرداد بصر النبي يعقوب ـ عليه السلام ـ ، لذلك تقدم في رتبته ضمن سياق الآية الكريمة ، ومما تجدر الإشارة إليه أن أغلب جمل الشرط وجوابها لا تخرج رتبة تقديم فعل الشرط فيها على جواب الشرط إلا كان بمجمله من باب تقديم العلة على المعلول .

٥ . الفضل و الأهمية

وهي رتبة شرفية تعد ميزة لتقدم اللفظ الأهم على رتبة المهم في سياق الآيات القرآنية الشريفة قال تعالى : **" من كان عدوا لله وملائكته**

---

[٤٧] ـ البقرة : ٧٩ .

[٤٨] ـ لسان العرب : مادة ويل .

[٤٩] ـ البحر المحيط ، ج٥ ، ص ١٣٩ .

[٥٠] ـ يوسف ٣٢ .

[٥١] ـ يوسف : تكملة الآية السابقة .

[٥٢] ـ يوسف : يوسف : ٩٣ .

وكتبه ورسله وجبريل وميكال " [٥٣] ،فقدم اللفظ الفاضل على المفضول ، وجعل مزية النظم في الآية الكريمة بأن الكافر وجه العداء أولا له ـ جل و علا ـ فقد قدم اللفظ الفاضل المقدس عل المفضل بحسب رتبة الأهم فالمهم ؛ ومن ذلك التقديم بالفضل والشرف قوله تعالى : **" من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين "** [٥٤] ومنه تقديم السميع على البصير في أغلب المواضع لأهمية صفة السميع في شأن قدرته ـ سبحانه و تعالى ـ و تفضيلها على صفة البصير ، لأن حدود السمع أشمل و أبعد فهي بذلك المعنى أهم من حدود البصر الذي يدور فيما حوله [٥٥]، لذلك كانت رتبة السمع متقدمة ؛ ومثله قوله تعالى : **" و أذن في الناس يأتوك رجالا وعلى كل ضامر "** [٥٦]لأن الغالب أن من يأتي راجلا يكون من مكان قريب والراكب يأتي من مكان بعيد ، فقد روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أنه قال وددت أني حججت راجلا لأن الله تعالى قدم الرجالة على الركبان في القرآن فجعله من باب تقديم الفاضل على المفضول [٥٧] ؛ ومثله في تقديم الفضل و الأهمية قوله تعالى : **" وَبِالْوَلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَٰمَى وَالْمَسَٰكِينِ "** [٥٨] فقد اقتضت ضرورة رتبة الفضل و الأهمية أن يقدم (الوالدين) ويخصهما بالإحسان ، ثم عطف عليهما بقية من يستحق الإحسان بحسب أ هميتة ؛ وأما قوله تعالى : **" واسجدي واركعي مع الراكعين "**[٥٩] قد تقدم ذكره أن رتبة الركوع تسبق السجود في اعتبار الطبع أما في هذا الموضع فقد قدم الساجدين و صفا للعابد على الراكعين و بحسب المعاني فالتقديم فيه بالفضل لأن السجود أفضل من الركوع ، و أكثر دلالة في العبودية ، لقول النبي محمد ـ صلى الله عليه و آله و سلم ـ : (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد) ، وقيل : أن المراد بالسجود صلاتها في بيتها وبالركوع صلاتها مع الناس في المسجد لقوله اركعي مع الراكعين وقدم الأول لفضله لأن أفضل صلاة المرأة في بيتها وكذلك عبر عنه بالسجود لأنه أكثر دلالة في العبودية من الركوع [٦٠]

أما في الشعر و النثر فلا تطرد الضوابط السياقية الواردة في القرآن الكريم بتخريج الضرورة الشعرية و القافية بالنسبة للشاعر و التوسعة على الناثر في تنظيم سجعه .

---

[٥٣] ـ البقرة: ٩٨ .
[٥٤] ـ النساء: ٦٩ .
[٥٥] ـ الفصول المفيدة في الواو المزيدة ، ج١ ، ص ١١٣ .
[٥٦] ـ الحج : ٢٧ .
[٥٧] ـ ينظر : البحر المحيط ، ج٦ ، ص ٢٠١ .
[٥٨] ـ البقرة : ٨٣ .
[٥٩] ـ آل عمران : ٥٣ .
[٦٠] ـ البحر المحيط ، ج٢ ، ص ٤٥ .

ثالثا : ضرورات التقديم لدى اللغويين المحدثين

لم يخرج الدرس اللغوي لدى المحدثين في تخريجاتهم لظاهرة التقديم السياقي بين ألفاظ العبارة في الآيات القرآنية عن دائرة المنطلقات النظرية للمدرسة السياقية الحديثة و آراء النحاة المتأخرين ، ولما دارت أبحاثهم حول الظواهر السياقية في القرآن الكريم فقد خرجوا علينا بتخريجات تتمحور حول مفهوم التقديم في العبارة القرآنية المقدسة ، منها ما خالفوا بها النحاة و البلاغيين ، و منها ما جاءت على وفق ما ذكره المتقدمون ، ولكن بتعبير آخر من ذلك :

١. الترخيص

يجب أن يأمن اللبس في الرتبة المحفوظة ، [61]و مفادها على سبيل المثال لا الحصر ، أن جملة الحال حكمها التأخير عن عاملها وعليه جمهور النحاة ، وقد أجاز بعضهم تقدم الحال المفردة على عاملها المتصرف فقط ، غير أن شواهد من عبارات القرآن المجيد تجزم بتقدم جملة الحال ، كما في قوله تعالى : **" وَ هْيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَ نَادَى نوحٌ ابْنَهُ "** [62] ، ويرى بعض النحاة أن جملة (وَهِيَ تَجْرِي بِهِم) ، يجوزُ أن تكونَ حالاً من الضمير في بسم الله، أي جَرَيانها بسم الله ، وهي تَجْرِي بهم [63].

ويجوز أنْ تكونَ مستأنفة، و «بهم» حال من الضمير في تَجْرِي؛ أي وَهُمْ فيها [64] ، بينما يجزم المحدثون بأنها جملة فعلية في محل نصب حال ، ومذهبهم فيها من قبيل الترخيص في قرينة الرتبة المحفوظة [65] ، و جواز ترخيصهم إنما جاء لعدم تقاطعه مع المعنى العام و ما يتمخض عنه من دلالة مناداة نبينا نوح ــ عليه السلام ــ لابنه (يام) ، و مثله قوله تعالى : **" وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلّمَا مَرّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخَرُوا مِنْهُ "** [66]، فقد اختلف النحاة أزاء حكم جملة (ويصنع الفلك) ، فمنهم من يذهب إلى أن (الواو) الداخلة على الجملة الاستئنافية ، ومذهب بعضهم أنها حالية ، أما المحدثون فيؤكدون على أن الجملة حالية ، و لا توجد قاعدة نحوية لدى

---

[61] ـ اللغة العربية معناها و مبناها ، د تمام حسان ، ص٢٠٧ ، ط٥ ، عالم الكتب ، القاهرة ، ٢٠٠٦ .
[62] ـ هود : ٤٢ .
[63] ـ التبيان في علم البيان ، ابن الزملكان ، ج ١ ،ص ٢٨٧، تحقيق د أحمد مطلوب ، ط١ ، بغداد ، ١٩٦٤ .
[64] ـ بالبحر المحيط ، ج٢ ، ص ٨٧ .
[65] ـ البيان في روائع القرآن ، ص ٦٩ .
[66] ـ هود : ٣٨ .

النحاة تسوغ أو تجيز ذلك التقديم في الآية الكريمة ، لأن جمهور النحاة قد أجازوا تقديم الحال المفرد على عامله حصرا بشرط أن يكون متصرفا [٦٧]، وفيه نظر لعدم الإجماع ، لصعوبة أمن اللبس بين الحال و المفعول المطلق ، ومذهب المحدثين في ذلك التقديم هو الترخيص بحجة أمن اللبس في المعنى ، فضلا عن أنه من النوادر الواردة ، فلا يمكن القياس عليه .

٢. تقديم الحدث الأظهر

و يشترط فيه أمن اللبس في الرتبة غير المحفوظة من ذلك قوله تعالى : " **وَ وَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَ أَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ** " [٦٨] ، فالواضح من سياق الآية الكريمة أن امرأة زكريا – عليه السلام – كانت عقيما ، و حملها بغلام لا يتم إلا بعد صلاح حالها و إزالة عقمها يتطلب لطف رباني ، فشاءت قدرته أن يهبها ، استجابة لدعاء زكريا – عليه السلام – ، و مقتضى المعنى يطلب من نظم سياق العبارة المقدسة تعليق الهبة الربانية على أمر إصلاح حالها ، لكن السياق القرآني عكس ترتيب الحدث ، و قدّم الهبة على الإصلاح ، و ذلك لأنه هو المظهر الأوضح لاستجابة دعاء زكريا – عليه السلام – بأن يهبه الله – عزّ و جلّ – ولدا ، فلم ينصب دعاؤه على أمر إصلاح زوجه ، لأن الإصلاح من باب تحصيل الحاصل [٦٩]، وقد أغفل النحاة المتأخرون ذلك في ضرورات التقديم لديهم – كما أسلفنا – ، و مثله قوله تعالى : " **ثُمّ دَنَا فَتَدَلّى** " [٧٠] ، أي : تدلى ثم دنا ، ويتضح من سياق العبارة المقدسة أن الناظم – جلّ و علا – عكس الترتيب لأمن اللبس في المعنى ، ويبدو أن أمر التدلي بالنسبة للنجم هو أمر معجز و خارق لما يعقله الناس من تدلي كل شيء معلق في السقف ، و أما تدلي النجم بغير علق مرئيي يتدلى به فتلك معجزة الله – جلت قدرته – لذلك تقدم ذكره في العبارة على فعل (الدنو) ، لأنه أظهر من الدنو ، مع أمن اللبس في المعنى [٧١].

٣. التقديم للشهرة و الانتشار

من ذلك نحو قوله تعالى : " **إنّا أوْحَيْنَا إليْكَ كَمَا أوْحَيْنَا إلى نوحٍ و النَبِيينَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أوْحَيْنَا إلى إبْراهِيمَ وَ إسْمَاعيلَ وَ إسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الأسْباطِ و عِيسَى وَ أيُوبَ وَ يُونِسَ**

---

[٦٧] - البيان في روائع القرآن ، ص ٧١ .

[٦٨] - الأنبياء : ٩٠ .

[٦٩] - البيان في روائع القرآن ، ص ٧٣ .

[٧٠] - النجم : ٨ .

[٧١] - البيان في روائع القرآن ، ص ٧٢ .

وَ هارُونَ وَ سُليْمَانَ و آتَيْنَا داوودَ زَبُورا "[٧٢] ، نجد ترتيب ذكر الرسل بحسب الرتبة الزمانية حتى وصلت الآية الكريمة على نبينا عيسى ــ عليه السلام ــ ثم تلا عيسى ــ عليه السلام ــ في ورود ذكره ، من هو أقدم منه وجودا فخالف الترتيب الزماني لرتبهم ، و ذكر الأشهر بالذكر نبينا أيوب ــ عليه السلام ــ لما امتدحه القرآن الكريم بوصفه نعم العبد ، ثم قدّم ذكر نبينا سليمان ــ عليه السلام ــ على ذكر أبيه نبينا داوود ــ عليه السلام ، ويعلل المحدثون ذلك التقديم ، للأشهر منهم ، ويبدو لنا أن هذا التصنيف لدى المحدثين يتطابق و رأي المتأخرين في تقديم الأفضل و الأهم ، كما سبق ذكره .

٤. التقديم بقصد مراعاة الفاصلة

وهو مطلب أسلوبي يقتضي عدم حفظ الرتبة ، مع أمن اللبس في المعنى ، منه قوله تعالى : **" فَرِيقًا تَقْتُلونَ و تَأسَرونَ فَرِيقًا "** [٧٣]، فما ألفه القارئ من جواز النحاة في تقديم المفعول به (فريقا) في قوله تعالى: **" كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ "** [٧٤]، ولكن رعاية الفاصلة بين الجملتين من الآية السابقة [٧٥]، و يقصد بها تحويل الوظيفة النحوية لـ (الواو) من عاطفة إلى استأنافية ، مما جعل الفاصلة جلية في بناء العبارتين ، فكانت العبارة المقدسة الأولى تقدم فيها المفعول به جوازا ، و جاءت الثانية محافظة على رتبة ألفاظها ، ويبدو لنا أن المحدثين يمكن أن يبوبوا ذلك ضمن باب تجاوز الرتابة في تركيب العبارة ـ و كما سيأتي تفصيله ـ .

٥. التقديم بقصد كسر الرتابة

لغرض دفع الإملال [٧٦]، فقد زعم بعض المحدثين أن أسلوب النظم في القرآن الكريم يقتضي تقديم اللفظ بغية الخروج من نمط الرتابة ذات البنية السياقية المتشابهه ، من ذلك قوله تعالى : **" يُرِيدُ اللهُ لِيُبَينَ لَكُمْ وَ يَهْدِيكُمْ سُنَنَ الْذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ يَتُوب ُعَلَيْكُمْ وَ اللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ O وَ اللهُ يُرِيدُ أنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ يُرِيدَ الْلَذِينَ يَتّبِعُونَ الشَهَواتِ أنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمَا O يُرِيدُ اللهُ أنْ يُخَفّفَ**

---

[٧٢] ـ النساء : ١٦٣ .

[٧٣] ـ الأحزاب : ٩٦ .

[٧٤] ـ المائدة : ٧٠

[٧٥] ـ البيان في روائع القرآن ، ٧٣

[٧٦] المصدر نفسه ، ص٧٣ .

عَنْكُمْ و خُلِقَ الإنْسَانُ ضَعِيفًا " [٧٧] ، نجد أن التقديم وقع بين الجملتين الاسمية و الفعلية في استهلال الآيات الثلاث من قوله (يريد الله) ، وقد أغفل أصحاب هذا التخريج من المحدثين دلالة بناء الجملة الفعلية و دلالة بناء الاسمية ، كما أسلفنا في الحديث عن التقديم لدى البلاغيين ، فالجملة الفعلية (يريد الله) تقع جوابا لسؤال : ماذا يريد ؟ ، فالسؤال فيها ينصب على الحدث المراد ، و هو البينة و الهداية ؛ أما الجملة الاسمية (الله يريد) فتقع جوابا لسؤال : من يريد ؟ فالسؤال يقع على لفظ الجلالة الذي شاء لطفه أن يتوب عليهم ، ويبدو أن مبدأ الخروج من الرتابة مع أمن اللبس في المعنى لا يتحقق في ما ذهب إليه أصحاب هذا الرأي في الآيتين الكريمتين المذكورتين ؛ أما مذهبهم فيمكن تمثيله في ظاهرة تقديم الرتبة في قوله تعالى : **" فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ "** [٧٨] و **" فلا يُؤمِنُونَ إلّا قَلِيلا "** [٧٩] ، و مثله قوله تعالى : **" و جِئْنا بِكَ عَلَى هؤلاءِ شَهِيداً "** [٨٠]و **" و جِئْنا بِكَ شَهِيداً علَى هؤُلاءِ "** [٨١]،ويبدو لنا أنّ المحدثين قد أضافوا شيئا جديدا إلى ضرورات التقديم الذي انفرد في بيان حقيقته البلاغيون و النحاة ، لكن يبقى التنبيه ماثلا في فرق دلالة التركيب السياقي في الآيات الكريمة .

٦. التقديم بحسب مبدأ القصر و الطول

بمعنى أن الكلمة المفردة أولى بالتقديم من المركب ، و جعل المركب أولى بالتقديم من شبه الجملة ، و جعل شبه الجملة مقدما على الجملة التامة التكوين، نحو قوله تعالى **: " و قالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إيْمَانَه أتَقْتُلونَ رَجُلاً أنْ يَقُولَ اللهُ رَبّي "** [٨٢] ، فقد جاء بثلاث صفات للرجل أ وردها بحسب ترتيب الطول ، فقدّم الكلمة (مؤمن) لإفرادها ، ثم تلاها بالصفة الثانية وتركيبها شبه جملة (آل فرعون) ، ثم جاءت الصفة الثالثة و تركيبها جملة فعلية (يكتم إيمانه) ، و مثله قوله تعالى **: " إنّ الذينَ كفروا و ماتوا وهم كُفارٌ أوُلَئِكَ عليهم لعْنَةُ اللهِ "** [٨٣] ، لو أخذنا جملة صلة الموصول لوجدناها جملة فعلها لازم ، ثم عطف عليها جملة فعلها لازم وفي حيزه جملة حالية ، ثم ، جملة مركبة ؛ ومثله قوله تعالى **: " ولَكُمْ فِيهَا مُسْتَقرٌ وَمِتَاعٌ**

---

[٧٧] ـ النساء : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ .
[٧٨] ـ البقرة : ٨٨ .
[٧٩] ـ النساء : ٤٦ .
[٨٠] ـ النساء: ٤١ .
[٨١] ـ النحل : ٨٩ .
[٨٢] ـ غافر : ٢٨ .
[٨٣] ـ البقرة: ١٦١ .

إلَى حِينْ " [٨٤]، فالمبتدأ المؤخر كلمة واحدة وقد عطف عليه جملة ، و مثله قوله تعالى : **" إنما حرّم عليكم الميتة و الدم و لحم الخنزير و ما أُهِلّ لغير الله "** [٨٥]، فقد عطف على المفرد (الدم) ، ثم عطف مركب إضافي (لحم الخنزير) ، ثم عطف عليه اسم الموصول و صلته جملة فعلية ، وهكذا في أغلب تراكيب العبارات في القرآن الكريم ؛ و يبدو لنا أن المحدثين في هذا الرأي من ضرورات التقديم لم يسبقهم إليه أحد من البلاغيين أو النحاة .

٧ . السجع

حفلت لغة التنزيل بأفانين من السجع ، و لم تخرج لغة الحديث الشريف عن هذا الضرب من الكلام ، لأسباب كثيرة ، منها : قرب السجع من نظم القافية ، والسجع يجري على ألسنة العامة و الخاصة ٧، لسهولة تداوله و حفظه ، فضلا عن أن جرس الكلمة فيه يقترب من بنية العبارة المقدسة في لغة القرآن وأسلوب نظم الشعر ، لذلك اعتد النحاة به و عدّوه من مأثور كلام العرب ، ويذهب الدكتور ابراهيم السامرائي إلى ضرورة النظم في الآيات القرآنية الكريمة ، وطلبا للتوازن و السجع تظهر ظاهرة التقديم بين ألفاظ العبارة القرآنية ، ولم يورد السامرائي شواهد من القرآن الكريم بل أخذ من أحاديث الرسول الكريم قوله (صلى الله عليه و سلم) : (**أرْجِعْنَ مَأزُورَات غَيْرَ مَأجُرَات**) ، فقدم : (مأزورات) مكان (مأجورات) ، طلبا للتوازن و السجع [٨٦] .

ونخلص إلى القول في ظاهرة التقديم في العبارة القرآنية الكريمة ، أنها لم تأخذ مساحتها من البحث و التمحيص لدى النحاة المتقدمين ، بسبب انصرافهم إلى تعميم قواعد النحو ، و تقعيد أبوابه ، أما أصحاب الإعجاز القرآني ، فخرجوا عن قواعد الدرس الأسلوبي في القرآن الكريم ، و ذهبوا إلى أن التقديم مزية للتأمل في جمال اللفظ و حسن التعبير ، مراعاة لخفة اللفظ من استثقاله ، وتطبيقا لجرس الكلمة و مسجوعها ، و انصرفوا للاستغراق في غريب ألفاظ القرآن ، و فتح مغالق الألفاظ المقترضة و الدخيلة ؛ في الوقت الذي أضاف النحاة المتأخرون ، معارف جديدة أغنت الدرس النحوي و اللغوي ، من خلال استغراقهم في باب العلل النحوية الثانية و الثالثة ،و أضافوا علل جديدة تقعد ظاهرة التقديم في أسلوب العبارة القرآنية ، منها : تقدم الكلمة بعلة رتبتيها : المحفوظة و غير المحفوظة ، أو بعلة زمان حدوثها ، أو بعلة الطبع و العادة الحتمية لرتبة

---

[٨٤] ـ البقرة : ٣٦ .

[٨٥] ـ البقرة : ١٧٣ .

[٨٦] ـ مع المصادر في اللغة و الأدب ، د إبراهيم السامرائي ، ج٢ ، ص٤٧ ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨١ .

الكلمة ،أو تقدم رتبة الكلمة بعلة السبب و المسبب ، و أخيرا يرى النحاة المتأخرون في تقديم رتبة الكلمة في العبارة القرآنية الكريمة لفضلها و شرفها ؛ أما البلاغيون فعلقوا ظاهرة التقديم في القرآن الكريم بعلل دلالية تخص المعنى ، وما ينصرف إليه المعنى الجديد بعد التقديم ؛ وقد آثرنا أن نعرج على الدرس اللغوي الحديث ، ونقف على مساهمات المحدثين من اللغويين العرب في ظاهرة التقديم ، فاستوقفنا الباحث الدكتور تمام حسان في هذا الدرس اللغوي ، وخرج علينا بضرورات كثيرة منها ما قد سبقه إليها النحاة ،نحو : ضرورة الترخيص مع أمن اللبس و التي تقابلها ظاهرة التقديم جوازا لدى النحاة ، ثم علة تقديم الأظهر ، و التي عدّها تمام حسان إغفال من النحاة المتقدمين لهذه الظاهرة ، لكنها في واقع الأمر حالة نادرة في سياق العبارة القرآنية، و لا يمكن الخروج بقياس لها ، أما رأيه بشأن تقديم اللفظ الأشهر فتقابلها ضرورة تقديم الأفضل و الأهم لدى النحاة المتأخرين ، أما ما يحسب له من فضل الإضافات الجديدة لهذا الدرس اللغوي ، فمنها : ضرورة كسر الرتابة و دفع الإملال ، و ضرورة مراعاة الفاصلة في الكلام ، و ضرورة القصر و الطول في العبارة ، و أضاف الدكتور السامرائي ظاهرة السجع في جوانبها ربما تكون سببا لتقديم اللفظ . و ما تجدر الإشارة إليه أن أغلب اللغويين المحدثين من العرب قد آثروا السير على مناهج الدرس اللغوي الحديث ، وما توصلت إليه أبحاث المدارس الغربية في الدرس اللغوي ، فلم تخرج أبحاثهم ، و آراؤهم عن دائرة المدارس اللغوية الغربية ، لذلك انصرفوا عن الدرس اللغوي في القرآن الكريم ، بحجة أنه مشبع ، أو لخطورة المنزلق في المحرم و المقدس .

====================

انتهى البحث

نتائج البحث

١ ـ توسع المحدثون في الناتج الدلالي لظاهرة التقديم في القرآن الكريم أكثر من البلاغيين .

٢ ـ التقديم ظاهرة كلامية لا تخضع لقياس معين غرضها ان يتوسع المتكلم في معانيه .

٣ ـ عدّ النحاة اللفظ المحذوف جوازا أو وجوبا هو من باب التقديم ، نحو قولهم : زيدا ، بمعنى أكرم زيدا ، فحذف المتقدم لدلالة الحال عليه . و مثله في قولنا : خيرَ مقدم ، و المحذوف تقديره (قدمتَ) .

٤ ـ الناتج الدلالي من التقديم في القرآن الكريم يعد حرفا من حروف الإعجاز القرآني لأنه عدول عن الأصل لغرض دلالي و بياني يتصل بالمتلقي .

==

المصادر و المراجع

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ ابن جني النحوي ، د. فاضل السامرائي ، دار النذير ، بغداد ، ١٩٦٩ .

٣ ـ الأسلوبية ، د. عبد السلام المسدي ، دار الكتاب الجديد ، ط٥ ، بيروت ، ٢٠٠٥ .

٤ ـ البحر المحيط ، ابوحيان الغرناطي الأندلسي ، تحقيق : صدقي محمد جميل ، ط١ ، دار الفكر بيروت ، ١٩٩٢ .

٥ ـ البنى التركيبية ، نعوم جومسكي ، ترجمة : يونيل يوسف ، دار الكتب

بغداد ، ط٢ ، ١٩٨٧.

٦ ـ البيان في روائع القرآن ، د. تمام حسان ، عالم الكتب ، ط٢ ، القاهرة ، ٢٠٠٠ .

٧ ـ التبيان في علم البيان ، ابن الزملكان ، تحقيق : د. أحمد مطلوب ، ط١ ، دار الكتب بغداد ، ١٩٦٤ .

٨ ـ الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث الهجري ، د. محمد حسين آل ياسين ، ط١ ، مكتبة الحياة بيروت ، ١٩٨٠ .

٩ ـ دلائل الإعجاز في علم المعاني ، عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : د ياسين الأيوبي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ٢٠٠٢ .

١٠ ـ الكتاب ، سيبويه ، تحقيق : د. عبد السلام هارون ، ط٣ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٨٨ .

١١ ـ لسان العرب ، ابن منظور الإفريقي ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٨ .

١٢ ـ اللغة العربية معناها و مبناها ، د. تمام حسان ، عالم الكتب القاهرة ، ٢٠٠٦

١٣ ـ لمع الأدلة في أصول النحو ، أبو بركات الأنباري ، تحقيق: سعيد الأنباري ، مطبعة الجامعة السورية ، ١٩٨٨ .

١٤ ـ مباحث في علم اللغة و اللسانيات ، د. رشيد عبد الرحمن ، ط١ ، دار الرشيد ، بغداد ٢٠٠٢ .

١٥ ـ مباحث في لغة القرآن الكريم و بلاغته ، د. عائد كريم علوان ، ٢٠٠٨ .

١٦ ـ مجاز القرآن ، معمر بن المثنى ، تحقيق: د. محمد فؤاد سكين ، ط١ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٨٥ .

١٧ ـ المصادر في اللغة و الأدب ، د. ابراهيم السامرائي ، دار الرشيد ، بغداد ١٩٨١ .

١٨ ـ معاني القرآن ، سعيد بن مسعده ، تحقيق: عبد الأمير محمد أمين الورد ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٨٥ .

==================================